بعد مرور أكثر من ثلاثين عاماً على وفاة عاشق الريف والرومانسية

محمد عبد الحليم عبد الله.. هل يعيد النقاد الاعتراف بفضله في تقديم القصة العربية

القاهرة: خالد محمد غازي

أكثر من ثلاثين عاما مرت حتى الآن على رحيل رائد الرواية العربية محمد عبد الحليم عبد الله ورغم هذه الفترة الطويلة على رحيله، إلا أن النقاد مازالوا حتى الآن متجاهلين إنتاجه الأدبي الذي أثرى الحياة الأدبية خلال عقود الأربعينات والخمسينات والستينات، ونجح في تقديم شكل الرواية للقارئ العربي، وهو ما مهد الطريق إلى الأجيال الجديدة، لتقديم إنتاجهم بشكل لائق.

الغريب أن عبد الحليم عبد الله الذي حصل على تكريم كبير من الحكومة المصرية من خلال العديد من الجوائز إلا أن النقاد أثناء حياته وبعد مماته فرضوا عليه شبه مقاطعة، وهو ما دعاه إلى السؤال وباستنكار قائلاً للنقاد:

لماذا تتجاهلونني؟انني لا اطمع في مديح.. ولكنني أتلهف إلى معرفة مكاني بين كتاب مصر.. فلماذا الاضطهاد؟ الامر المثير حقاً أن النقاد تجاهلوا حجم الإقبال الكبير للقارئ العربي على أعمال عبد الحليم عبد الله حتى بعد وفاته ومع ذلك استمروا في المقاطعة.

يقول الناقد الراحل د. غالي شكري: كان النقد في غالبيته حينذاك- وبعضه إلى الآن- يؤثر الكسل العقلي، فقد استسهل لفظة الرومانسية، وأطلقها دون تحفظ على كل من يكتب حول الحب ويضيف شكري: ولعل من المفيد أن أفاجئ بعضاً من نقادنا بما أتيح لي أن اطلع عليه من واقع أرقام التوزيع حيث فوجئت بدوري أن مؤلفات محمد عبد الحليم عبد الله ظلت في مقدمة القائمة من أواخر الأربعينات حتى منتصف الستينات، أي خلال ما يقرب من عشرين عاماً، وهي الحقبة التي ازدهرت في بدايتها الأولى أعمال إحسان عبد القدوس. ويوسف السباعي، وازدهرت في القرب من نهايتها أعمال نجيب محفوظ، ويوسف إدريس وعبد الرحمن الشرقاوي.

الكاتب الرومانسي

مضى جيل الريادة هيكل، المنفلوطي، محمد كامل، وترك بصمته على فن الرواية العربية، حيث حاول هذا الجيل أن يبدع رواية عربية خالصة لا يشوبها تأثيرات أو اقتباسات من الرواية الغربية، لكن الهاجس الرومانسي المفرط في" ميلودرامية" ظل ساكناً في تلك الأعمال الريادية، لذلك أتت كتابات عبد الحليم عبد الله متأثرة إلى حد كبير بتلك النزعة الرومانسية، فالعاطفة ظلت الموضوع الأثير لديه الذي نسج من خلاله رواياته، التي لاقت صدى جماهيريا واسعاً خاصة في أواسط الشباب وصغار السن كروايات: لقيطة، بعد الغروب، شجرة اللبلاب، شمس الخريف التي وجدت الصدى النفسي الملائم، فهي تنحو إلى تجسيد شخصيات رومانسية حالمة تسعى إلى تحقيق أفكار مثالية عن الخير والجمال، فتلاقي الصعاب والأهوال، وتلك هي سمة الجيل الذي عبر عنه عبد الحليم بصدق.. ولقد آمن عبد الحليم عبد الله أن رسالة الأديب هي نفس رسالة المصطلح الاجتماعي، فالأدب الصادق هو الذي يكون صوتاً صادقاً ومعبراً عن نبض المجتمع، والأديب البارع هو الذي يلتصق ببيئته....ومن هذا المنطلق عبر أديبنا عن آلام وآمال المهمشين في القرى والنجوع، وامتزج قلمه بالتعاطف والكشف عن خبيئة النفوس، وما يعتمل داخلها من انفعالات ورغبات دفينة.

شجرة اللبلاب

ولد عبد الحليم عبد الله في العشرين من مارس عام ١٩١٣ في قرية" بولين" بمحافظة البحيرة، حيث انعكست الطبيعة والحياة الهادئة البسيطة على وجدان الصبي، الذي شد انتباهه أصوات العصافير والبلابل وحركة الثور في الساقية، والبيوت الطينية الواطئة، والأزقة الضيقة التي انطلق في أرجائها مع أقرانه من الصبية الصغار، يمارسون العابهم المتاحة في ذلك الوقت.

ولهذا فقد شب عبد الحليم عبد الله قارئاً شغوفاً بالقصص والحكايات الشعبية، التي فتحت مداركه على عالم ساحر يكتنفه الغموض والدهشة مما كان له أكثر الأثر في تشكيل وجدانه ووعيه.

الراحل/ محمد عبد الحليم عبد الله

يقول الكاتب الراحل: كانت طفولتي من ذلك النوع الذي يتعذر على الإنسان أن ينساه.. إن الذاكرة بما تحويه من خبرات حياتية مخزون الكاتب الذي يعنيه الإبداع، لذلك ارتكزت أعمال عبد الحليم على شجرة(الذاكرة) فقد أختار البطل طريق العلم، ليعوض به ما صادفه في حياته من أهوال، فقد بدأت أزمته منذ الطفولة المبكرة، كما أشار في مقدمة الرواية، لذلك اعتمدت الرواية على بنية التذكر كإطار للأحداث والتفاصيل التي يسردها البطل ذو الرؤية الثنائية التي تعتمد على لونين فقط هما الأبيض والأسود.. لذلك ظل الصراع دائرا بين اللونين في كافة أعماله الروائية.. الأبيض بدلالاته الناصعة كتعبير عن النقاء، البراءة إلى آخر المترادفات، في مواجهة الأسود المعبر عن الشر والقبح في هذا العالم حيث يقول البطل عن زوجة أبية" ظهرت في بياض أيامنا وسواد لياليناً" ويأتي الراوي أو ضمير المتكلم ليعبر عن وجهة نظر (المفرد) في(المجموع).. فيرى حركة الشخوص بمنظور يميل إلى المبالغة التي تستدر عاطفة القارئ ليتواصل مع هموم وأحزان البطل.

يقول د: غالي شكري: كان عبد الحليم عبد الله في هذه المرحلة الممتدة عبر ست روايات أسيراً للنزعة العاطفية المسرفة أو على الصعيد الجمالي تصبح الميلودراما هي سيدة الموقف تستنزف اكثر المواقف قتامة، وابعدها عن الممكن، واشدها التصاقا بنفسه ثابتة عند وعي الطفولة.. أما القالب الفني المختار هو الذكريات التي لا ترد على هيئة ألوان وخطوط متباينة في توازيها وتقاطعها وانكسارها، وإنما على هيئة مجرى متدفق بالانفعالات في جدول مستقين لا ينحني، فالذكرى في" شجرة اللبلاب" تتحول مع الزمن إلى ذاكرة لا تخيب.. معلقة على صدر البطل كمرآه لا تعكس سوى طفولته وصباه.

الباحث عن الحقيقة

في روايات محمد عبد الحليم عبد الله الأولى كانت العلاقات العاطفية تكاد تكون المحور الذي تدور حوله الأحداث حتى إذا قرأنا" الباحث عن الحقيقة" الرواية الثانية عشرة له نجد أن موضوع الحب قد أتجه نحو الحقيقة ونحو الواقع المعاش، وكان الكاتب يصر على تقديم نفسه للقراء على أنه كاتب قصة رغم دراساته الأدبية العديدة ومقالاته التي كان ينشر بعضها في الصحف والمجلات.

يقول عبد الحليم عبد الله: الحرية هي روح العمل الفني، أما أن يقاد الفنان من الأمام إلى هدف، أو يدفع من الخلف إلى هدف، فهذه بدعه لا تلبث أن تختفي، وسيظل الكتاب الذين كتبوا" مذهبية" يكتبون، وسيظل الناس يقرأون لهم على الرغم من حملة الموجهين الذين يريدون أن يلغوا قسما كبيراً من الثقافة، وأن يهدموا في سبيل من يدعون إليهم كثيرا من الصروح حتى تستوي الأرض بالأرض، وينزل الجيد إلى الرديء. وكان الكاتب لا يفكر في عنوان الرواية أو القصة، الا بعد الانتهاء منها، فكان طبيعياً أن تصدر رواياته الأخيرة" بدون عنوان" وهي التي نشرت باسم" قصة لم تتم" التي تتصدرها دراسة كتبها المستشرق جوردان موتو، وتناول فيها دور عبد الحليم عبد الله الرائد في الرواية المصرية والعربية.

رفض عبد الحليم اتهامات النقاد له في ذلك الوقت بالرومانسية على صفحات مجلة الرسالة الجديدة في حوار غلبت عليه الحدة واستشعار الخطر من هؤلاء النقاد الذين يكرسون لكتاب بعينهم، ولا يقدرون تماماً أعمال الحقبة الرومانسية التي تزعمها عبد الحليم في ذلك الوقت، وضمت إحسان عبد القدوس ويوسف السباعي، وغيرهما من الكتاب الذين غلبت على أعمالهم النزعة العاطفية... وعلى الرغم من ذلك فقد حققت أعمالهم أعلى الإيرادات في النشر لما بها من موضوعات أثيرة لدى القارئ العادي فلم يقم السدود بينه وبين قارئه، فلا يشعر الأخير أنه أمام كاتب متغطرس أو متفلسف بل إنه بسيط كل البساطة، وبعيد عن الابتذال والسطحية.

للزمن بقية

في قالب الذكريات تدور أحداث الرواية الأخيرة لكاتبنا وهي" للزمن بقية" حيث نلمس مدى التطور في الموضوع الروائي عند عبد الحليم... حيث البطل" صلاح النجومي" يسرد وقائع حياته من خلال بنية روائية أراد بها الكاتب أن يخلصها الكثير من الشوائب القديمة، وارتكزت على محاور جديدة على أعماله، وبين الزمنين الماضي والحاضر، وبين العالمين الداخلي والخارجي، والمونولوج الذي يتواتر من صوت الراوي، والكاتب معاً فالأخير دائم الحضور خلف شخصياته دون حرية إكسابهم حق الانفراد بالقارئ، حيث يلاحظ الناقد يوسف الشاروني أن شخصيات القصة بغض النظر عن تمايزها في الجوانب الأخرى- مثل المؤلف تستخدم التشبيه- وكلها تؤيد كلامها بالحكم، مما يجعلنا نحس بحضور الكاتب دائماً على جوارها، رغم اتاحه الفرصة لها للانفراد بالقارئ، فهم أشبه بأبناء شديدي الشبه بوالدهم.. وبالتالي شديدي الشبه بعضهم ببعض.

لقد ظلت الرواية المصرية عملاً فردياً مبعثراً لا يشكل تيارا في الحركة الأدبية، حتى اصبح هناك جيلا كاملا من الروائيين يشكلون تياراً أدبياً لا يقل أهميته عن التيار الشعري السائد منذ أمد طويل، بل أخذت الرواية رويدا رويدا تتصدر عالمنا الأدبي.

ولا ينفي النقاد الأثر الجاد والحقيقي لتجارب عبد الحليم عبد الله وجيله من كتاب الرواية، حيث يقولون إن قضية البناء التي اسهم في ترسيخها وتأصيلها ذلك الجيل مدينة لروايات محمد عبد الحليم عبد الله بالكثير من الجهد والعطاء المبذول في كسب جمهور لم يعتد ذوقه هذا الفن، وكسب حيزا مرموقا في تاريخ الأدب المصري، كان من قبل عرشاً ثابتاً للشعر، وكان عبد الحليم عبد الله وأحداً من كوكبة عملاقة ضمت نجيب محفوظ وعبد الحميد جودة السحار والشرقاوي وغيرهم.

ولولا تراث ذلك الجيل الذي يحق لنا أن ندعوه بجيل الرواية المصرية ما وجد أبناء الموجة الجديدة ما يجددونه، فهم انما يجددون شيئاً قائماً بالفعل، ربما كان الآن شيئاً قديماً ومتخلفاً عن روح العصر، ولكنه في قدمه وتخلفه انما يصوغ الأمر مرحلة كاملة لم يعرفها الجيل الراهن، مرحلة التأسيس لنوع أدبي لم يكن معدودا في بلادنا حتى العشرينات من هذا القرن من الأعمال المحترمة" التي ياتيها البشر.

لعل رحيل عبد الحليم عبد الله المبكر هو الذي حال بينه وبين إتمام مسيرة التطور الفني التي بدأها قبل سنوات من رحيله، ولكنها النفس الشفافة التي استشعرت فداحة التجاهل النقدي، والتعتيم على عطائها الإبداعي هي التي جعلت عبد الحليم عبد الله يردد مع أحد أبطاله:- ما فائدة أن يضيء القمر مثل هذا المكان؟

«أرض العراق» تباكينا عليك فما
أجدى البكاءُ فقد جفّت مآقينا
وماالنوائح كالثّكلى فقد نُكِبتْ
كل العروبةَ فلتخرسْ دعاوينا
ياثغر كل بلاد العُرْب هل نُسِيَتْ
تلك المعارك إذ أنهت مآسينا
فيوم«ذي قار» ثم «القادسية» لا..
نَنْفكُّ نذكرها، والذكرُ يكفينا
أين«الرشيدُ» وأين السابقون لنا
يرون ماحل في الدنيا بأهلينا
وأين أين«أبوتمام» شاعرُنا
يرى ويكتب شعراً بل دواوينا
من ذا يضارعُنا في ترك أمتنا
في قبضة الغاصب الرعديد هل فينا؟
كمثلِ«معتصمٍ،بالله» معتصماً
لبى لذات خمار قال: قد جينا
إليكَ ياكلبَ أرض الروم يقدمنا
جيشٌ لجب يلبي من ينادينا
هيا بني العرب والإسلام قد صَدَئَتْ
فيكم عروبتكم أتَعبتمُ الدينا
وددتُ منكم جواباً مثل سابقه
خجلت ياصاحَ حقاً من تباكينا

عبداللطيف حزام الصعر

قصة قصيرة:

الناس في حارة الدهمية

عبدالوهاب الضوراني

● الصراخ يتوالى مدوياً متقطعاً في بيت العيدروس، الرجل كعادته يبدو في حالة هيجان وتوتر وهو يتعقب مطارداً زوجته من حجرة لأخرى ينهال عليها ضرباً وتقريعاً وهي تحاول عبثاً التخلص منه كفأر متوجس يتعقبه قط شرس.

في الطريق بدا الأستاذ عبيدو مدرس اللغة العربية متذمراً مترهلاً متأففاً وهو يجتاز زقاقاً وعراً حديث الرصف تغمر أخاديده وثغراته بلاليع مكشوفة راكدة مملوءة ببقايا أكوام نفايات أهل الحارة.

وكعادة الرجل بدا لاهثاً منفعلاً يلتقط أنفاساً متقطعة محشرجة لشدة تأثير الرطوبة لايعير ضوضاء أهل الحارة وتحياتهم ومشاجراتهم اليومية آذناً صاغية. يمضي شاقاً طريقه أكثر حذراً متحاشياً الإنزلاق في أية بالوعة راكدة فاغرة فاها تعبث بها قطط وجرذان جائعة ضارباً كفيه وهو يثرثر ويهذي ولا يتوقف عن التقاط أنفاسه المتقطعة.

يبدو اليوم سيئاً مشؤوماً من أوله .. الله يلعن الحارة والعيدروس وأهلها في آن واحد!

يرفع رأساً كروياً تحيط به صلعة براقة مستديرة تلألأت كقنديل واه متهالك يوشك أن يلفظ أنفاسه وهو يحاول عبثاً مداراة صلعته جراء حرارة الشمس تحت طيات جريدة هشة قديمة:

– ياعيدروس اتق الله وقل يافتاح ياعليم! .. يتصدى له العيدروس كثور هائج وهو لايحجم عن ضرب زوجته ناعتاً إياه كعادته بألفاظ جارحة: ياعبيدو ياجبان مش شغلك، لاتحشر أنفك فيما لايعنيك .. ياجبان.

ليستأنف الرجل اجتياز مزيد من المرات الزلقة ومياه راكدة أفرزتها بلاليع فاغرة مكشوفة وهو يبرطم متأففاً لايلوي على شيء: العيب مش عليك .. العيب على العاقل وأهل الحارة الجهلة الأغبياء .. تفه عليك وعليهم جميعاً..

من قهوة الدهمية يتصاعد لغط وثرثرة المدخنين العاطلين، ومماحكات مروجي وسماسرة الحراج فيما طغت أجواء فكاهية شابها نوع من النكات والثرثرة الرخيصة:

– العيدروس الجبان السكران .. لابد من تأديبه.

– نعم مايضرب «المكلف» إلا جبان..!

– الويل للرجال وهم في الحقيقة مجرد حريم .. نسوان..

يرقب المارة الدرويشة السجانة ترفل كعادتها في ثياب الرجال .. قوية صارمة مفتولة العضلات كرجال المصارعة، تدنو لتوها بطريقة تحد مستفزة من حافة نافذة بيت العيدروس وهي ترغي وتزبد وتتشدق بأقبح الألفاظ والشتائم: تتدارى في بيتك ياعيدروس مثل النسوان .. أخرج لي إن كنت رجلاً حقاً! .. ينبعث صراخ العيدروس متهدجاً كأسد ثائر يتأهب لافتراس فريسة عنيدة ذكية باصقاً في وجهها من خلف قضبان النافذة:

– يادرويشة ياحبشية ياموّلدة سأقطع لسانك يوماً..

يتوارى داخل داره برهة ثم لايلبث أن يظهر وفي يده آلة حادة كفأس أو معول غليظ: الرجل فيكم يخرج لي، أنا عنتر .. أنا ابن المغيرة .. أنا شمشون الجبار، أنا العيدروس ابن الشماعة قاهرة الرجال..

في الحارة يقبل ساجان الدرويش يتعقبه عن كثب قرده اللعوب العجيب ولفيف من صبية وغلمان مشاغبين .. وكعادته يشرع في التلويح بعصاه صوب القرد الذي تأهب بدوره لتأدية عدد من الوصلات البهلوانية بطريقة استعراضية طريفة فيما اندفع الرجل داخل الحلقة يرقص جذلاً مدندناً على إيقاع حركات القرد العجيبة المثيرة للضحك «أشتي حريوة حالية من بنات صنعاء اليمن .. حريوة صنعاء .. حريوة صنعاء .. اليمن».

●●●

في بيت العاقل يرمق الرجل سيء السمعة زوجة العيدروس بنظرات جائعة نهمة لاتخلو من شراهة واشتهاء، فيما أصابعه لاتتوقف لحظة عن العبث – بطريقة ترويجية مفتعلة – بمسبحة ثمينة وثمة قلائد نادرة:

– لتتقدم المرأة لوحدها .. على انفراد دون ضجيج أو وجع دماغ .. امرأة رائعة شهية لاتخلو من إثارة واكتناز .. تقلب لفورها في العاقل والمكان وزوجها القابع بعيداً رهن إقامة جبرية صارمة نظرات زائغة بلهاء.

●●●

يفاجأ أهل حارة الدهمية يوماً بالمرأة زوجة العيدروس تولول وصرخات الاستغاثة تنبعث مدوية من نافذة بيت العاقل فيما بدا الرجل خلفها وهو ينهال عليها ويوسعها ضرباً وتجريحاً بقسوة وضراوة .. يمرق ساجان الدرويش يتبعه قرده العجيب وحشد من غلمان أشقياء وبعض الشحاتين وسماسرة سوق الحراج يشاهدون الرجل وقرده وطريقة إيقاعاتهما الطريفة أشتي حريوة حالية من بنات صنعاء اليمن .. حريوة .. صنعاء .. اليمن .. حالية..»

إعلان